

المكاشفة وكتابة الاعتراف في الرواية العربية المعاصرة Disclosure and Recognition Writing in Modern Arabic Novel

د/حفيظة سوامية*

جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)

hafidasoualmia04@gmail.com

تاريخ القبول 2020/12/30	تاريخ التقييم 2020/12/26	تاريخ الارسال 2020/12/22
-------------------------	--------------------------	--------------------------

الملخص:

إن قراءة الرواية العربية الحديثة في سياقاتها النفسية والإيديولوجية والاجتماعية أضحت ضرورة لابد منها، ذلك أن محكي الذات من أكثر الأجناس الأدبية قدرة على التعبير عن أبعاد نفسية تكمن في أعماق النص الروائي والتي تتجلى عادة من خلال عوالم المكاشفة والبوح والاعتراف، فضلا على أن وضع الخطاب السردي في سياقه النفسي سيجلي عوالم ذات التلفظ وذات الملفوظ اللتين تتشخصان في ثنايا النص من خلال الهواجس والأحلام والاستهيمات التي تكشف جميعا عن مجاهيل الذات وأغوارها.

فما هي النتائج التي يمكن أن نخلص إليها إذا قرأنا بعض النماذج المتنوعة من جنس الرواية العربية، إذا وضعناها في سياقها النفسي؟ وما هي الأبعاد التي يمكن أن يلامسها هذا النوع الأدبي؟

كلمات مفتاحية: الرواية؛ المكاشفة؛ الاعتراف؛ البوح؛ السياق النفسي.

Abstract:

Reading the modern Arabic novel in its psychological, ideological and social contexts is an absolute necessity, because self-narration is one of the most literary genres which can effectively express psychological dimensions that go deeply in the novelistic text, and usually appear through disclosure worlds, revelation and recognition, as well as the novelistic discourse in its psychological context which reveals worlds of uttering and the uttered itself that are present in the text through obsessions, dreams and illusions that are all reveal the mysterious unknown side of Self.

So, what are the results we can conclude if we read some Arabic novel models and putting them in their psychological context? And what are the dimensions can this literary genre cover?.

Keywords: novel; disclosure ; recognition ; revelation ; psychological context.

*المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

يختص النص الروائي العربي بكونه يجسد الدلالات والأبعاد النفسية والإيديولوجية وغيرها بشكل أجلى، من خلال خلق عالم نصي يحاكي الواقع ويتفاعل معه، إنه نوع متفرد بما فيه من بنيات متنوعة تبرز داخل النص. وتنعكس مرجعيتها إلى واقع حياة المؤلف مباشرة، إنه بناء له استقلاله الذاتي (الذات محوره)، ولكنه يحكي هذه الذات في سياقاتها المختلفة (الفكر-المجتمع-السياسة-الثقافة...) من خلال فعل الكتابة ، فقد استطاعت الرواية العربية استلهاً عديد السياقات المختلفة التي مكنت الروائي من أن يعبر عن واقع الحياة وعن عوالمه الداخلية بطريقة أضفت جمالية فنية على عمله الإبداعي. ولعلنا في هذا المقال سنتوقف عند أحد أهم السياقات التي تنطوي عليها النصوص الروائية العربية وهي السياق النفسي، وذلك من خلال مقارنة نماذج روائية عربية مختلفة تحوز على أبعاد وعوالم نفسية مختلفة، وهو ما يقودنا إلى طرح جملة من التساؤلات لعل أهمها: -- ما مدى المكاشفة النفسية التي تتضمنها النصوص الروائية العربية؟

- ما حدود الاعتراف والبوح الصريح في الكتابة الروائية العربية المعاصرة؟

- كيف تجلى السياق النفسي في النصوص الروائية العربية؟ وما هي أبعاده الجمالية والفنية؟

2- الغوص داخل النفس والتعمق في الأحوال النفسية:

في أغسطس 1929 سخر سيغموند فرويد، رائد النظرية النفسية في الأدب من فكرة أنه قد يفعل شيئاً سخيلاً للغاية مثل أن يكتب سيرته الذاتية قائلا: « هذا بالطبع اقتراح مستحيل الحدوث تماماً»، كما رد على ابن أخيه الذي نقل له اقتراح وعرض ناشر أمريكي بأنه من

الواجب أن يكتب هذا الرجل العظيم قصة حياته قائلاً: «ربما، ظاهرياً... حياتي مرت بهدوء وبشكل هادئ ويمكن تغطية أحداثها بتاريخ قليلة، ولكن داخلياً- ولمن عرفوني بشكل أفضل؟ كانت الأمور أكثر تعقيداً قليلاً؛ فمن ناحية الاعتراف المعبر والكامل والأمين عن الحياة، يتطلب الأمر الكثير من التهور الطائش للبوح الفضائحي عن شخصي فضلاً عن الآخرين من الأسرة والأصدقاء والأعداء، ومعظمهم لا يزال حياً، وهذا أمر، ببساطة، خارج المسألة بالنسبة إلي...»¹

لا شك في أن هذا الكلام لفرويد يكشف عن مسائل وإشكالات عدة فيما يعرف بكتابة الاعتراف، ولكن مسألة هامة نركز عليها أوجزت في القول بأن حياة الفرد ظاهرياً تبدو هادئة، ولكنها تعج داخلياً بالصخب، والثورة ولحظات الانكسار والضعف، زيادة على انتكاسات النفس وتورطها أحياناً فيما يسيء إليها، لذلك فالكتابة في الواقع تحتاج إلى قوة نفسية وإرادة ثابتة، وتحد كبير لهواجس الذات الكاتبة وترددتها في دخول هذه المغامرة الجريئة والخطيرة في أن واحد، حتى وإن كانت بعيدة عن شهات الاعتراف الطائش والبوح الفضائحي. وعليه فإن الرواية تعد من أكثر الأنواع الأدبية دلالة على العوالم الداخلية للفرد، لأنها كفيلة بالتعبير عن معاناة الذات وأحوالها النفسية واحتواء أدق خوالجها وكذا ترجمة مشاعرها وردود الفعل الداخلية لها، ذلك أن هذا الخطاب شأنه شأن كل أنواع الكتابة الأدبية يسعى إلى تحقيق الغاية الأولى من كل عمل فني وهي تخفيف العبء عن الكاتب ومنحه الراحة النفسية، وفي هذا يرى إحسان عباس أن الغاية الأولى التي يحققها خطاب الاعتراف - ويقصد هنا السيرة الذاتية- هي: " الغاية المزدوجة التي يؤديها كل عمل فني صحيح، أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها؛ فهي متنفس تطلق للفنان، يقص فيها قصة حياة جديرة بأن تستعاد وتقرأ...، وترجيحها نفسياً لأنها تستند إلى الاعتراف"².

وبالنظر إلى هذه الغاية التي يبتغيها المؤلف، فإن أبعاداً نفسية عديدة تكمن في عمق العمل الروائي، فضلاً عن تلك التي تطفو على السطح يستشفها القارئ دون كبير عناء، كما أن نجاح الكتابة الروائية مقترن أساساً بالغوص في وصف الصراعات التي تعج بها النفس البشرية، وهذا ما ذهب إليه جل النقاد وخاصة منهم المعتمدين على المنهج النفسي في مقارنة النصوص

الأدبية يقول إحسان عباس: «إن حظ السيرة الذاتية من البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلي، أو شدة الصراع الخارجي»³، ومن ذلك فإن المتن الروائي الأوتوبيوغرافي المفرغ محتواه من التعمق في الأحوال النفسية يحمل على الاعتقاد بأنه مجرد نص تاريخي لحياة شخص ما، كالجسد بلا روح.

ثم إنه لا يمكن تصور نص روائي لا يتطرق فيه المؤلف إلى الأحوال النفسية وهو نوع أدبي أشد ما يكون تعلقا بالذات وبالنفس الإنسانية التي يكشف الكاتب عن أغوارها ويستشعر كينونتها، وقد وصف عبد القادر الشاوي ذلك بعبارة انطلاق الحياة الفردية حيث يقول: «إن ما نسميه بانطلاق الحياة الفردية هو وضع انطولوجي (الأنا الوجودي) قبل كل شيء لأنه يتضمن الإحساس بالكينونة والصرورة في نفس الوقت»⁴، فالرواية لا تتحقق إلا من خلال إثبات الذات بهواجسها الداخلية، والتعمق في تحليل رغباتها وتفسير اضطراباتها، وباختصار جعل القارئ يتعرف على كينونة الذات وبلوغ أغوارها.

1-2- الخبز الحافي: بوح نفسي ومكاشفة سلوكية :

ليس القارئ بحاجة إلى كبير جهد ليكتشف ما ينطوي عليه نص "الخبز الحافي" من وقفات نفسية عميقة تتكشف من خلالها المعاناة الداخلية الكبيرة التي عاشها محمد شكري في طفولته، والتي ظلت آثارها تنازعه بمشاعر سيئة جدا طيلة حياته، وقد كانت روايته محاولة للتخلص من هذه التراكمات النفسية السلبية، والدليل على ذلك أنه هو نفسه يقول في واحد من حواراته: «السر يكمن في أن الخبز الحافي كتب أصلا ضد الأدب. لو لم أكتبه لأصبت بالجنون أو لانتحرت. كنت خارجا للتو من حياة صعبة: دعاة، وتهريب ومخدرات. ثم الندوب التي خلفتها في نفسي التربية السيئة التي تلقيتها من والدي الذي كان يضربني وأنا وإخوتي. "الخبز الحافي" كان علاجا لي، به استعدت توازني النفسي»⁵.

لا أبلغ من هذه الحقيقة النفسية التي جاءت على لسان مؤلف واحدة من أكثر الروايات إغراقا في وصف الأحوال النفسية، لقد التجأ محمد شكري إلى الكتابة ملتصقا فيها الشفاء من آلامه النفسية، إنه كان «واعيا بهذا الاختيار ومفروضا عليه لاستبعاد فكرة الانتحار والتخلص نسبيا من الندوب التي تركتها في نفسيته التربية التي تلقاها، ومواكبة المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع المغربي»⁶.

إن ما ضمنه محمد شكري روايته السيرية كان مقصودا، إنه أراد من خلال الغوص في رصد الآثار السلبية التي تركها مسار حياته المتأزم في داخله الوصول إلى رسم صورة بأبعاد عميقة عن المجتمع المغربي (طنجة) الذي نخرته العادات السيئة والمظاهر المشبوهة، يقول الكاتب في هذا الصدد: « إن ما كتبته في هذه السيرة اعتبره وثيقة اجتماعية، وليس أدبا عن مرحلة معينة أثارها السيئة مازالت تنخر مجتمعنا»⁷.

ونحن نقرأ رواية "الخبز الحافي" نقرأ قصة انهيار نفسي كامل لذات لم تحتفظ في داخلها إلا بكل أنواع الظلم والقسوة والتشرد، والسبب الرئيس في ذلك "الأب" الذي لا يكن له المؤلف إلا الكره والمقت والعداء، لأن هذا الأب تخلى عن دوره النفسي والاجتماعي الذي يفترض أن يقدمه للأسرة، وليس هذا فحسب، بل كان سببا في انهيارها وتشتتها، ويذكر محمد شكري كثيرا من الأحداث الدالة على ذلك، منها ما نقله في قوله: «دخل أبي وجدني أبكي على الخبز. أخذ يركلني ويلكمني: اسكت، اسكت، ستأكل قلب أمك يا ابن الزنا. رفعتني في الهواء خبطني على الأرض. ركلني حتى تعبت رجلاه»⁸، إضافة إلى مثال آخر تتجلى فيه قسوة هذا الأب، وهي حادثة قتل الأب لابنه (أخ محمد شكري)، وتبقى هذه الحادثة على رأس الذكريات المحطمة للنفس والتي مايفتأ الكاتب يذكرها على امتداد الرواية إذ يقول: «تذكرت كيف لوى أبي عنق أخي»⁹. إنها أنانية أب لا يفكر إلا بنفسه، ينتهز جهد ابنه، فيأخذ الأجر الذي كان يتقاضاه من عمله في المقهى الشعبي، ويستغل الأم التي كان عليها توفير احتياجات البيت، وهو ماكث فيه دون عمل: «اللجنة على كل الآباء إذا كانوا مثل أبي»¹⁰، وخالصة إحساس الابن بأبيه هي: «أكره الناس الذين يشبهون أبي»¹¹.

ولم يتوقف ظلم هذا الأب لأسرته عند هذا الحد، بل انحرفه وتعاطيه للمخدرات وغيرها من مظاهر الفساد الأخلاقي، كان أشد وطأة على هذه الأسرة، وعلى محمد شكري. إن صورة الأب هذه كان لها انعكاساتها السلبية على محمد شكري الطفل والشاب حيث:

1- عمل عنف الأب وانحرفه على تدمير الابن روحيا وقيميا وأخلاقيا وجعله رافضا لنظام الأسرة بالجملة لأن الأب يتموضع في قمة هذا النظام (البناء). إن في رفض بناء الأسرة، رفض وتدمير لمكانة الأب الرمزية، وتحطيم لسلطته التي هي سبب الشقاء والتعاسة.

2- من النتائج النفسية الناجمة أيضا عن عدوانية الأب وسوء التربية، تشكل علاقة خاصة بالمرأة تظهر في علاقته بأمه التي يحبها لأنه يكره أباه، فيتحدث عنها قائلاً: «حبي لها: يمتزج مع كراهيتي له»¹²، إن هذه العبارة توحى بأنه كان يعاني من عقدة أوديب، إلى درجة أنه كان يشعر بعدم الرضا من ضحكات أمه مع أبيه.

3- كما أن مقت الأب والنفور منه كان له انعكاسات أخرى تمثلت في كرهه لكثير من الناس وإن لم تكن له علاقة بهم، ككرهه للشرطي لأنه يضرب الأطفال فيذكره ذلك بتسلط والده، وكرهه لزوج المرأة الفرنسية الذي كان يعمل لديهما، وترجم كرهه هذا في معارضة أوامر الزوج بعكس أوامر الزوجة، وإجمالاً لا يمكن أن يفسر إحساس الكره الذي يملك المؤلف بأنه محاولة لإسقاط السلطة الذكورية أينما تجسدت واستبدال مجتمعه الذكوري بآخر نسوي وهذا ما يفسر تولد نزعة العنف لديه، ورغبته في الانتقام إذ لما ضرب والده أمام عينيه كان هذا المشهد عزاء له¹³، كما ترجم حب الانتقام من والده في أحلامه وخياله، إذ يقول: «في الخيال لا أذكر كم مرة أقتله»¹⁴.

إضافة إلى مشاعر الكره والمقت والرفض والانتقام، تولدت لدى بطل "الخبز الحافي" مشاعر داخلية متضاربة أحيانا وغير مفهومة أحيانا أخرى نذكر من بينها أنه كان يتمنى أن تكون لديه امرأة يضربها، ويمارس تجاهها العنف والقسوة كما كان والده يفعل. إن "الخبز الحافي" رواية تمثل اعترافات طفولة مشاعبة معذبة مثيرة للجدل، وقد أبت الظروف إلا أن تجعل من هذا الطفل إنسانا يتخبط في ظلمات الأمية حتى العشرين من عمره وهو ينجرف إلى عالم اليأس حيث العنف والانحراف والضياع النفسي.

2-2- "الرحلة الأصعب" أغوار نفسية اجتماعية:

استطاعت فدوى طوقان من خلال عملها الروائي "الرحلة الأصعب" أن تبرز حالتها النفسية المتعلقة بالوضع الاجتماعي التي يعاني منها مجتمع بأكمله، تقول وهي تصف الوضعية النفسية والاجتماعية الصعبة للأهالي الذين فصل بينهم الاحتلال الظالم فعاشوا بشوق اللقاء لبعضهم: «لم أنس كم كانت لهفتنا شديدة للقاء الأهل والأحبة بعد انقطاعنا عنهم وبأسنا من

إمكانية عودة التواصل، ناهيك عن إشفاقنا من الانقطاع عن بقية العالم العربي مثلما حدث للفلسطينيين المقيمين في فلسطين المحتلة بعد عام 1948»¹⁵.

إن حديث الأدبية عن الالهفة الشديدة للقاء الأهل والخوف من الانقطاع عن العالم الخارجي يشف عن ذات مرهفة الحس رقيقة المشاعر، ترهبها محاولات قوى الاحتلال لتجريد الفلسطينيين من هويتهم، ومحاولة مسخهم وإضعافهم وتفريقهم وتحويلهم إلى مجرد أقليات، ورغم هذه الحالة النفسية التي تعيشها الكاتبة إلا أنها تحاول التعبير عن قوة الفرد الفلسطيني الذي تشرب القيم الوطنية والقومية والذي ورغم الحصار والمضايقات يرفض الاحتلال وينتفض ضد القمع والعنف بجميع أشكاله.

هذا وتطفح أعمال فدوى طوقان بالحالات التي تنجم عن الوضعية الاجتماعية لشعبها الذي تمارس ضده سياسة القمع و القهر والإذلال، ومحاولة اجتثاث الفلسطينيين من أرضهم، وفي المقطع الآتي تسرد الكاتبة بكثير من مشاعر الأسى والحزن والإحساس بالقهر، حادثة هدم بيت (حمزة) المؤلمة جدا حيث تقول: «استحضر ذكرى ذلك الصباح الكئيب. وقفت بشباك بيتي المطل على بيت حمزة في سفح جزر يم، وقفت لأشاهد أقيح لوحة ممكن أن ترسمها أصابع شيطان. الشرفات مفتحة على مصراعها، أثاث البيت يلقي من الشرفات، الأمور تجري على استعجال بل لحظة التفجير، حمزة يطل من إحدى الشرفات ويهتف بصوت امتزجت فيه الكبرياء بدموع الانكسار: الله أكبر الله أكبر الله أكبر.

تعروني رعشة شديدة، تهمر دموعي، تمر دقائق... يغشى المنطقة المحيطة صمت مأساوي لا يلب ثان يتبعه صوت انفجار، يتبع الانفجار غمامة كثيفة من الغبار تنتشر في الجو وتختفي الدار من الوجود: ... في صباح اليوم التالي نزلت حيث كان بيت حمزة منتصبا، وقفت بإطلاله... سألت عن رب البيت لأجده لاجئا مع عائلته في بيت أحد الجيران. أكبت على يده المعروقة أقبلاها، أبللها بدموعي، ورفعت وجهي ونظرت إلى وجهة الهرم، وإلى عينيه الساهمتين كان صمته البليغ أشد وقعا وتأثيرا من كل لغات العالم»¹⁶.

هذا المقتطف ينطوي على بعض الآثار النفسية التي يخلفها الاحتلال الغاشم عند الفلسطينيين، حيث «التدمير العمراني يكون أقل أهمية أمام تدمير النفس والذات ومسح وطمس معالم الكينونة والهوية»¹⁷.

ولا يخفى ما تعاني منه فدوى طوقان على غرار كل الفلسطينيين من الشعور باليأس والإحباط والانكسار، وبالمقابل وفي النص ذاته تبرز قيمة نفسية مهمة وعالية جدا هي قيمة المقاومة والرفض؛ مقاومة الانحاء ورفض المسخ¹⁸.

وما يميز البعد النفسي في "الرحلة الأصعب" أنه يعكس أيضا البعد الاجتماعي فالمعاناة الاجتماعية تنجر عنها معاناة نفسية شديدة مشتركة لدى الشعب الفلسطيني الذي لم يسلم أي فرد منه من ندوب داخلية وجراحات عميقة سببها الأول والأخير الظلم والقهر والبطش. هكذا ومن خلال نص "الرحلة الأصعب" تظهر الذاكرة متخنة بالمواقف والأحداث التي تحمل الشعور العميق بالجرح من جهة والرغبة في التحرر من جهة أخرى ، كيف لا ومن يسردها إحساس شاعرة ووعي مناضلة، وشعور فلسطينية تجرعت كثيرا من الألم ومرارة الظلم.

2-3- "نجل الفقير" تجاوز للذات ومحاولة للغوص في نفسية الآخرين:

يتخذ مولود فرعون سبيل التحليل والتعمق في الحالة النفسية بهدف إعطاء تفسير للحياة نفسها، كقوله بعدما وصف طويلا أساه الشديد وتأثره البالغ بوفاة خالته التي يحبها حبا لا نظير له: « إن الطفل لا يعبر بوجه عام عطف أبويه كبير أهمية، وإنما ذلك بالنسبة إليه من تحصيل الحاصل. بل ولا يفكر في ذلك مطلقا ويميل التذليل عندما يدللانه. فتراه يطمح إلى عواطف أخرى فوق ذلك، فيبادر المبادرات وينشد الأصدقاء ويريد- وأي جاحد معروف هو!- أن يهب قلبه الصغير هدية، فهو مستعد أن يفضح أمه ويفضل على أبيه رجلا آخر، شريطة أن يجد رجلا ثقة، وتصطدم حميته الساذجة بلامبالاة الكبار فلا يصادف إلا الخيبة وهي مصدر لأول إحساس له بالمرارة»¹⁹.

إن الكاتب يهذ ه المصارحة يفسر الطفل داخله، كما عاشه، وكما علق في ذاكرته بعواطفه ورغباته، وهو من خلال ذلك يعطي تفسيرا لطبيعة البشر انطلاقا من نتيجة استخلصها من غوصه داخل نفسيته، نفسية "فورولو" الولد المدلل.

وبشيء من الإشارات النفسية والتعمق في التحليل يصف "فورولو" بطل "نجل الفقير" إحساسه بجنون خالته وتأثره بنظراتها إليه: «أوه من عينين بأستين لمجنون، لن يمكنني رؤيتهما إن رأيتهما دون أن أتأثر أيما تأثر. فهما وحدهما اللذان يعكسان عذاب الروح، ويبحثان في وله عما فرط في القلب والدماغ. ولذلك تراهما زائغتين، مذعورتين، تبعثان على الفزع وتستدران الشفقة. لم لا ينعم الله على المجانين بفقدان البصر؟ أعتقد بأن أهمهم ستكون أهون عليهم»²⁰.

يزاوج الكاتب في مثل هذه المقاطع بين الوصف العميق لحالته الشعورية، وبين الغوص في تحليل شخصية الآخرين، وهو بذلك يرسم الحركة الداخلية لمشاعره وتطور أحاسيسه، و يومئ إلى تطور حياته النفسية ككل.

كما نستشف في غضون هذا المقطع وفي غيره أن المؤلف يقصد بهذه الوقفات النفسية إلى مجرد التذكر الاعترافي الموجه إلى القارئ ليتعاطف معه أو مع الشخصية (النفسية) موضع التحليل.

هذا فضلا عن الوصف المستمر لحالاته الشعورية العابرة والمترتبة عن كل موقف وكل حدث، والتي ما ينفك يسجل عقبها تفسيرات عامة وأحكاما مطلقة على نفسية الإنسان، وملامح سيكولوجية تتصف بها الذات البشرية.

ومع ذلك تظل الغاية الأولى لمولود فرعون-كما كل الأدباء- من الغوص داخل النفس هي أن يشعر بالراحة النفسية من جهة ويظهر قدرته العجيبة على تجاوز عقبات الحياة ومصاعبها من جهة ثانية، وهي إشارة إلى التعاضم والاعتداد بالنفس.

ويمكن أن نجمل الحديث عن ملامح الغوص داخل النفس والتعمق في أحوال الذات الداخلية في السرد الروائي فيما يأتي:

- قيمة الكتابة الروائية الحقيقية تتمثل في تجسيدها الماضي النفسي بخيره وشره.
- لا تقوم الرواية على ذكريات متقطعة ولا على صور خارجية شاهدها الكاتب في الناس والأشياء، بل تقوم على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها ومن ثم، قد تعجى الكتابة الروائية صورة للاندفاع المتحمس، أو التراجع أمام عقبات الحياة،

- وقد تكون تفسيراً للحياة نفسها، وقد يميل فيها الكاتب إلى رسم الحركة الداخلية لحياته، مغفلاً الاهتزازات الخارجية فيها إهمالاً جزئياً، وقد تكون مجرد تذكّر اعترافي موجه إلى القارئ القعاطف مع الكاتب، وقد تمتزج هذه العناصر بحضور متفاوت²¹.
- يسعى كاتب الرواية عادة إلى رصد نضجه السلوكي، وتوازنه الفكري من خلال الحركة النفسية التي تواكب الأحداث الخارجية المؤثرة بشكل أو بآخر على الذات وانطباعاتها ومزاجها وتقلبات مشاعرها.
- إن محكي الذات الروائي في النهاية عبارة عن فسيفساء من الذكريات والمشاعر والهواجس والأصداء والاستهيمات التي تكشف جميعاً عن شخصية المؤلف ونفسيته ولا شعوره.

3- التعري النفسي والاعتراف المخلص والتفصيل الدقيق:

إن النصوص الروائية التي تستعيد بصورة خاصة تجربة الفرد في الزمن الماضي وتعيد صياغتها لغوياً وذهنياً قصد بناء تاريخ الأنا، إنما تفقد هذه النصوص كل قيمة لها، وكل خصائصها ومميزاتها لو خلت من التعري النفسي والاعتراف المخلص.

وقد بلغ اهتمام كتاب السيرة الذاتية خصوصاً بالجانب النفسي والتوغل فيه بشيء من التفصيل إلى حد وصف الحركات النفسية بدقة، وكذا الاعتماد على نجوى الذات والرجوع إلى مبدأ مناجاة الإنسان نفسه، إذا قلت لديهم المصادر والوثائق²².

والأكيد أن السند النفسي، ونجوى الذات حاضراً معاً في كتابة الاعتراف، أين يجد الروائي فضاءً رحباً لتصوير خواجه وإخراج مكبوتاته بقليل من الخجل، ذلك أن وشاح الرواية يستر كل ما يستحي من ذكره ونسبته إلى ذاته.

في حين يؤكد بعض الدارسين بقوة على أن الاعتراف والتعري في كتابة الرواية السير ذاتية عادة دخيلة على مجتمعاتنا العربية، وغريبة عن تقاليدنا الاجتماعية المحافظة وأخلاقنا المترفعة عن مفاصد النفس، وهي من لدن الأمم الغربية؛ ومن هؤلاء أحمد آل مريع الذي يقول: «ولما كانت المجتمعات الغربية تعيش في حضارتها المادية ألواناً من الإباحية الغرائزية والتفكك الأسري وضعف الوازع الديني، انسأقت وراء المنع والملاذ، وحين يأتي أحدهم ليكتب سيرته

الذاتية، ويجلس مع نفسه يشعر بوخز الضمير وتأنيبه على كل ما فعله في أيامه الخالية، لذلك يتجه دون شعور إلى تعرية ذاته... ولكن الذي لا أستطيع فهمه ولا تقبله تلك الدعوات المكشوفة من قبل نقادنا وأدبائنا إلى احتذاء النموذج الغربي في الاعتراف...»²³.

في حين من نقادنا العرب من ينظر إلى كتابة الاعتراف على أنها السبيل إلى الصراحة والأمانة والصدق، وأن من يفتقد نصه الروائي السير ذاتي بوجه خاص إلى المكاشفة والتعري يكون قد قيده بغلائل النفاق الاجتماعي وتملق العواطف؛ فالكاتب الذي يعرض أمام الناس مرحلة من حياته بما حفلت به من خير وشر، من فضيلة ورذيلة، من لذة وألم، يكون رجلا قويا جديرا باحترام الأقوياء، وأما من يتظاهرون من كتابنا بحب الخير والتمسك بالفضيلة وهم غارقون في حمأة الموبقات فلا يمكن وصف أدهم بأدب قوة...²⁴.

إننا إذا نظرنا في الرواية السير ذاتية العربية فإننا نكتشف غيابا تاما لظاهرة الاعتراف والتعري في الموروث السير ذاتي العربي القديم وخاصة الاعتراف بما اقترفه صاحب السيرة من سلبيات؛ فعندما نقرأ سيرة العرب القديمة نجد أصحابها قد أضفوا على أنفسهم مسحة الأخيار والزهاد، ويظهر الواحد منهم في سمت المثاليين والأبرار، وثوب البراءة والطهر.

كذلك حال الرواية الأوتوبيوغرافية الحديثة، التي لا تختلف كثيرا عما سنه العرب في سيرهم قديما؛ إذ السواد الأعظم ممن كتبوا في هذا الفن لم يتوغلوا في أغوار ذواتهم ولم يتعمقوا في وصف أخطائهم وزلاتهم وربما ذكروها مبررة بما لا يدع مجالاً للشك في نبلهم وعظمتهم، ومع ذلك نقرأ بعض النماذج التي «تؤكد أن الكتابة الصريحة عن الذات ليست نادرة في الأدب العربي الحديث»²⁵.

على أن هذا التعري النفسي والاعتراف الصريح لم يخرج عن الحدود التي تضمن للعمل الأدبي جماليته التي ترقى بالأدب وترتفع بالإبداع عما يسيء إلى القارئ وذوقه، ذلك أن فضح الكاتب ذاته واعترافه بكل ما اقترفه في حياته لا يسيء إلى صاحب العمل فحسب، بل قد يسيء إلى المتلقي كذلك، يقول عصام العسل: «فالاعتراف باللحظات الخاصة والحميمة لا يمكن أن يعد العمود الفقري لكتابة السيرة الذاتية، إلا إذا كان كاتبها يمزج بين الكتابة والترويح للمنجز في آن واحد، وهو أمر لا يعد خالصا للإبداع، لأن الترويح للمنجز من خلال الإثارة غير المتعلقة بالإبداع يعد خلافا في الذات الإبداعية...»²⁶.

ولكن هذه النظرة قد تبدو مثالية افتراضية بالنظر إلى المنجز الروائي السير ذاتي العربي الحديث الذي ما فتئت أكثر نماذجه التي تحرت الصراحة والمكاشفة والتعري؛ تقع فيما يسمى بأدب الفضائح، ومن ذلك ما نجده في "الخبز الحافي" مثلا والتي بلغ فيها الاعتراف والتعري أقصاه حيث يكشف المؤلف تلك الحياة المتمردة على النواميس الاجتماعية السائدة التي تبلغ حد الشذوذ الأخلاقي²⁷.

ويتعمق محمد الباردي في تحليل صراحة محمد شكري غير الطبيعية حتى وصفها بأنها اعترافات استفزازية، وبأن "الخبز الحافي" سيرة ذاتية استفزازية لإغراقها في الاعتراف²⁸.

ومن مواضع الاعتراف والتفصيل الدقيق في هذه الرواية وصف حياة العيب والتمرد التي رسمها الكاتب بكثير من التعري النفسي والدقة في التصوير، إنها حياة الضياع في طنجة، إدمان ودعارة، كان محمد شكري شاهدا عليها لأنه عاشها ومارس كل انحرافاتها.

ومرارا يذكر مؤلف الخبز الحافي مقتل أخيه بحيوانية ووحشية لا حد لها ويروي هذه الحادثة بتفصيل مستفز ومؤلم في آن واحد، حيث يقول: «أخي يبكي يتلوى ألما، يبكي الخبز، يصغرنى أبكي معه. أراه يمشي إليه الوحش يمشي إليه الجنون في عينيه، يدها إخطبوط، لا أحد يقدر أن يمنعه. استغيث في خيالي، وحش مجنون! يلوي اللعين عنقه بعنف. أخي يتلوى. الدم يتدفق من فمه. أهرب خارج بيتنا تاركا إياه يسكت أمني باللحم والرفس»²⁹.

وهكذا يمكن اعتبار ظاهرة التعري النفسي والاعتراف المخلص من أهم ما يميز الرواية السير ذاتية وهي ناتج لحظات صدق ومصارحة يبلغها الكاتب مع نفسه أولا قبل أن ينقلها إلى المتلقي.

وهذا ما ساقه إدوارد سعيد في "خارج المكان"، وقد أورد في مقدمته للطبعة العربية ما يؤكد هذه النزعة الاعترافية التي تطفح بها روايته حيث يقول: «لقد سبق زميل عربي أن قال إن بعض ما ورد في كتابي لا يسر به المرء إلا لطيبه النفساني وأنا مدرك أن الكتابة الصريحة عن الذات نادرة في تراثنا. وإني لأمل أن يسهم هذا الكتاب في تنميه هذا التقليد. فإذا تحقق ذلك، بلغت الغاية في الرضا...»³⁰.

وتتأكد هذه الروح الاعترافية لإدوارد سعيد في ترديده عبارة "في غير مكاني" إنه في مونولوج مستمر يبحث عن مكانه الصحيح لأنه دائم الشعور بأنه عاش دائما خارج المكان: «

أن أكون أنا ذاتي يعني أن لا أكون تماما في موقعي الصحيح ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك وإنما كان يعني أيضا أنني لم أنعم مرة براحة بال، بل أتوقع باستمرار أن يأتي من يقاطعني أو يصوب لي أفعالي أو يجتاح حميمتي أو يعتدي على شخصي الضعيف الثقة بالنفس. كنت دوما في غير مكاني»³¹.

ويحاول الكاتب نفسه أن يفسر ذاته في دواخلها المختلفة بما يظهر عليه إذ يقول: « هكذا أصبحت "إدوارد" مخلوق والدي، تراقبه في عذاباته اليومية ذات داخلية مختلفة عنه كليا لكنها على درجة من فتور الهمة بحيث تعجز، في معظم الأحيان، عن مساعدته... فهل يمكن لـ "إدوارد" والحال هذه أن يكون إلا في غير مكانه؟»³².

هكذا يفضي إدوارد سعيد لنفسه وللآخرين بما يجترح في ذاته من الشعور بالضعف وعدم الثقة بالنفس وفتور الهمة مرة، وبعدم الرضا عن ذاته اللامستقرة مرات أخرى، وتبلغ صراحته وروح الاعتراف لديه إلى حد التشكيك في هويته الملتبسة التي يبحث عنها ولا يستقر عندها: « لم يكن في العالم الخارجي ما يبعث عن الرضا من دوامة تغيير المدارس (وما يستتبعه تبديل الأصدقاء والمعارف) والحيوات المختلفة التي عشناها، إلى هويتي غير المصرية المركبة الملتبسة، بل والمربية وكوني عادة في غير مكاني أو قل شخصا بلا ملامح محددة لا وجهة معروفة يتجه إليها»³³.

إن من مظاهر التعري النفسي والاعتراف المخلص، استعمال المونولوج أو الحديث النفسي كوسيلة فنية للإدلاء ببعض الاعترافات النفسية، والكشف عن بعض الخواطر الداخلية. ومن ذلك ما نقره في "نجل الفقير"، إذ يكتشف السارد مرارا بالجو النفسي الذي عاشه "فورولو" بطل هذه الرواية، ويستظهر ما اعتمل في باطن هذه الشخصية من خلال المونولوج، ومن أمثلة ذلك ما حدث به "فورولو" نفسه عندما أخبرهم أستاذهم في المدرسة عن سن الطفولة الذي هو سن الهناء والسعادة، لا ينشغل فيه الطفل إلا بالمعرفة واللهو ولا يهتم بما يفكر فيه الكبار ويعانون منه: « كان فورولو يحدث نفسه بينما كان معلمه يتكلم. هذا غير صحيح، غير صحيح. كان يود لو قال له ذلك. كلا! فالأطفال أشد رقة وحساسية فهم يشاطرون أهلهم وذويهم ما يقاسونه من ضنك»³⁴.

كان هذا الحديث النفسي رد فعل، ومتنفس له، إذ لم تكن له الجرأة على الإفصاح عن رأيه علنا، خاصة وأنه في موقع تلميذ أمام المعلم. ويرى إحسان عباس أن من دوافع الحديث النفسي إحساس الكاتب بوقع ذنوبه وأثامه فيريح ضميره بالتحدث عنها، ويقمع نفسه بالإعلان عن سيئاتها، ويقف منها موقف المتهم والقاضي معا، وإذا خرج سالما من لجة الصراع الروحي والنفسي والفكري إلى ساحل من الطمأنينة، رسم صورة لذلك الصراع، وأنهى قصته بالهدوء الذي يعقب العاصفة، والاستبشار الذي يأتي بعد اليأس³⁵.

كذلك كانت حالة البطل "فورولو" الذي جنح به مولود فرعون إلى المونولوج للاعتراف المخلص مع ذاته عندما شعر في وقت من الأوقات أنه ولد غير مؤدب، عندما تطفل وصديقه على أبويهما في مكان عملهما طمعا في اقتسام وجبة الغداء معهما، ويزداد إحساس الكاتب بالذنب وهو يحكي هذه الحادثة عندما عاد صديقه "سعيد" أدراجه إلى البيت لأن والده صاح به، في حين وجد "فورولو" رد فعل معاكس تماما من أبيه الذي أجلسه مكانه ليتناول وجبته وعاد هو إلى المنزل بحجة طلب قليل من الراحة. وقد كان أثر الحادثة بالغا في نفسية الكاتب إلى حد أنه ذكر بتفصيل دقيق للغاية وقع نظرات أولئك الرجال في نفسه فيقول: « كان ذلك الغداء تحت أنظار أولئك الرجال المليئة بالاحتقار بالنسبة إلي قطعة من العذاب. كان قاسي وعرب يسخران من أولئك الذين لا يعرفون كيف يربون أطفالهم. كان التعريض مباشر وكان وجهي ينقلب بين الحمرة والصفرة»³⁶.

وفي غمرة شعوره بالخجل والاحتقار، والإحساس بسخرية الآخرين، وتأنيب الضمير، يبدأ الحديث النفسي لتخفيف هذه المشاعر وإيجاد المبررات لفعلته « كنت أحدث نفسي حتى أخفف من ذنبي أن أبي لم يكن جائعا. ولكن كان علي أن أتوب إلى رشدي لأنني عندما عدت إلى المنزل، وجدت بين يديه صحن الصغير المصنوع من الفخار المحلى بمثلثات سوداء وحمراء. كان فرغ من أكل نصيبي من الكسكس الأسمر، في ذلك اليوم عاد إلى العمل والبطن منه نصف فارغ لكنه نقش في قلب ابنه إلى الأبد مدى ما يكره له من رقة وحنان»³⁷.

كثيرا ما يعود مؤلف الرواية إلى عالمه الذاتي الداخلي يستنطقه بكل جرأة، مفصحا عن بعض الطبائع النفسية الخبيثة التي ماجت في دخيلته خاصة في مرحلة الطفولة، وكأنه يعري

نفسه أمام نفسه وأمام الآخرين طلباً للراحة النفسية، ولعل ذلك نوع من التطهير الداخلي والاعتذار غير المباشر. ومن أجل بلوغ هذا الشعور بالارتياح يعلق صاحب الـ كتابة الروائية الاعترافية ذنوبه في كثير من الأحيان على الآخرين، والأسرة تأتي في المقام الأول إضافة إلى الظروف المعيشية، والبيئة وغيرها.

4- خاتمة:

نخلص في نهاية هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نوجزها في الآتي:

- تعد الرواية من أكثر الأجناس الأدبية التي تنطوي على عديد السياقات، كونها كفيلاً بالتعبير على مختلف مظاهر الحياة الفردية والجماعية.
- يشكل السياق النفسي أحد أهم السياقات التي تعتمد عليها الرواية العربية، ذلك لأنه يقدم للروائي الراحة النفسية التي تمكنه من التعبير عن مشاعره ويوح بلحاسيسه الداخلية بحرية أكبر وتحت وشاح التخيل الروائي.
- إن أهم مظاهر كتابة الاعتراف التي يحققها العمل الروائي تبرز من خلال المكاشفة والبوح والمونولوج النفسي الذي يساعد الروائي على الاعتراف والغوص في دواخل الذات البشرية.
- تنطوي رواية الخبز الحافي على مكاشفة بلغت مداها، وعلى بوح بلغ حد التعري النفسي والاجتماعي الذي يكشف عن مدى المعاناة التي عاشها الروائي محمد شكري.
- تمثل رواية الرحلة الأصعب لعدوى طوقان أحد أهم الأعمال الروائية التي كشفت بصدق عن الألم ومختلف الأحوال النفسية والاجتماعية التي عاشتها الروائية والمجتمع ككل.
- يكشف مولود فرعون من خلال روايته نجل الفقير عن مدى أهمية اعتماد السياق النفسي لإعطاء مفهوم للحياة عامة.

الهوامش:

¹- مندلسيون دانيال وآخرون، نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية، تر: حمد العيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، 2011، ص: 139.

²- عباس إحسان، د.ت، فن السيرة، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ص: 106-107.

³- المرجع نفسه، ص: 106.

⁴- الشاوي عبد القادر، الكتابة والوجود السيرة الذاتية في المغرب، أفريقيا الشرق، 2000، ص: 89.

- ⁵ - من حوار أجراه ياسين عدنان تحت عنوان "خليل طنجة ومؤرخ متاهاتها يحلم بقتل أسطورة الخبز الحافي"، زوايا، العدد، 4، 5، 2003، ص 13، 18. نقلا عن: الدا هي محمد، 2007، الحقيقة الملتبسة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء-المغرب، ص 118، 119.
- ⁶ - الدا هي محمد، الحقيقة الملتبسة، ص: 118.
- ⁷ - المرجع نفسه، ص: 118.
- ⁸ - شكري محمد، الخبز الحافي، دار الساقى، 1982، ص: 9.
- ⁹ - المصدر نفسه، ص: 14.
- ¹⁰ - المصدر نفسه، ص: 15.
- ¹¹ - المصدر نفسه، ص: 17.
- ¹² - المصدر نفسه، ص: 23.
- ¹³ - المصدر نفسه، ص: 14.
- ¹⁴ - المصدر نفسه، ص: 25.
- ¹⁵ - طوقان فدوى، الرحلة الأصعب (سيرة ذاتية)، دار الشروق، عمان، 1993، ص: 65.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص: 113-114.
- ¹⁷ - معتصم محمد، خطاب الذات في الأدب العربي، مطبعة الأمنية، منشورات دار الأمان للطباعة والنشر، الرباط، 2007، ص: 80.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص: 80-81.
- ¹⁹ - فرعون مولود، نجل الفقير، تر: محمد عجينة، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د.ت. ص: 87.
- ²⁰ - المصدر نفسه، ص: 87.
- ²¹ - عباس إحسان، فن السيرة، ص: 106-107.
- ²² - المرجع نفسه، ص: 50-51.
- ²³ - بن علي آل مربع أحمد، السيرة الذاتية مقارنة الحد والمفهوم، دار صامد للنشر، تونس، 2010، ص: 157-158.
- ²⁴ - أنور المعداوي، نماذج فنية في الأدب والنقد، مكتبة مصر، د.ط، د.ت، ص: 120، نقلا عن بن علي آل مربع أحمد، السيرة الذاتية مقارنة الحد والمفهوم، ص: 154-155.
- ²⁵ - الباردي محمد، عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مركز الرواية العربية بقاس وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس تونس، 2008، ص: 99.
- ²⁶ - العسل عصام، فن كتابة السيرة الذاتية مقاربات في المنهج، دار الكتب العلمية، 2010، ص: 9.
- ²⁷ - الباردي محمد، عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 97.
- ²⁸ - المرجع نفسه، ص: 97.
- ²⁹ - شكري محمد، الخبز الحافي، ص: 12.

³⁰-سعيد إدوارد، خارج المكان، دار الآداب، 2000 ص: 9.

³¹-المصدر نفسه، ص: 42.

³²-المصدر نفسه، ص: 43.

³³-المصدر نفسه، ص: 43.

³⁴-فرعون مولود، نجل الفقير، ص: 128.

³⁵-عباس إحسان، فن السيرة، ص: 108.

³⁶-فرعون مولود، نجل الفقير، ص: 74-75.

³⁷-المصدر نفسه، ص: 75.